مجلة قطوف الهند
المجلد: 3 العدد: 1 و2

مجرد سؤال

د.أحمد علي محمّد

---

(1)

في تلك اللّيلة التي غابَ فيها القمرُ ، وغفتْ الكلماتُ في قرارةِ الذاكرة ، عاودَهُ داءُ الكتابة ، وخامرتْهُ نزوةٌ عابرةٌ ليؤلّفَ قصةً ساخرةً يستميل فيها بعضَ الأذواقِ ، وقد حارتْ به السُّبلُ في إيجاد خيوط الحكاية بعد أن عصته اللّغةُ ، وأدارت له الحروفُ ظهورَها ، وهو لا يتورع في مثل هذه الحال من الانقضاض عليها بغيةَ ذبحِها بحدِّ القلمِ ، وسفحِ دمائها بين السطور ، وتدنيسِ عذريتها بالمداد الأسود ، إذ لم يعتدْ طيلةَ مزاولتِهِ صنعته خروجَ الكلمات عليه ، وتمردَ الحروف على سلطته .

وعلى كلِّ حالٍ لم يكن أديباً بارعاً في حرفته، إذ لم يكتب في زمانه كلّهِ قصةً واحدة تأتلِفُ فيها الحكايةُ مع اللُّغة ، أو ينسجم فيها اللَّفظ مع المعنى ، من أجل ذلك كانت سيرتُهُ مع الكتابة صراعاً واقتتالاً وعُنْفاً ونزيفاً يُدمي نهاياتِ الأحاديث ، ولهذا لم يرَ سُجُفَ الخيال لامعاً إلا من خلال مُعترك تنداحُ فيه الأفكارُ في عالم يُؤذن بالإباحية والتّحلل و القتل ، وكما أنّ الكلمات في قصصه ضحايا بريئة ، كذلك كانت الأفكار مكممة الأفواه مستلبة الإرادة ، لا تمتلك فضيلة التطلّع إلى الحرية والخلاص ، وأيّ خلاص ذاك الذي يروم إطلاقه في خِضَمّ اختناق الكلمات الحبيسة في زنزانة الذاكرة المظلمة ؟

كانت الأسبابُ الجوهرية التي تقضي على إحساسَهُ بروح اللّغة الطليقة عائدة إلى شغفه بتصوير حكايات الناس المعذبين ، وقد انكشف له طرفٌ في خياله المعتم ، فحواه أن الظلام الرهيب من حوله ليس شيئاً غير نفسه، والآن حان الوقت ليكشفَ جُزءاً من ذاته فيدخُلَ لأوّل مرة من خلال القصة إلى العالم من باب الذات ، غير أنّ ما أفسد عليه متعةَ المكاشفة أنَّ نفسه خالية كصحراء وموحشة كقبر ، ومع ذلك فلديه عزم على تخيّل ما يمكن أن يبني بوساطته قصةً تختلف عن سائر قصصه .

أخفق تلك الليلة في تأليف جملة واحدة تَحْسُن أن تكون نواةَ قصة مثيرة ، وأيقن أنّ خيوط القصة هذه الليلة قد أُفلتتْ من بين يديه ، فأراد خلافاً لطبعه أن يدعَ اللّغة ساكنة ، والكلمات قارة في الأعماق ، وفي صميمه رغبةٌ مضادة للكتابة لا تريد أكثر من أن تتصيدَ شيئاً من الهدوء الذي تلتذُّ به عوالمُ أخطأت في ضَمِّهِ إلى شرعتها ، وكان عليه أن يستأثر بخوفه وقلقه وهمومه ، لتمضي- به رحلةُ الشّقاء إلى النهاية من دون أن يُبدي لوناً من الاحتجاج أو يظهرَ صوتاً رافضاً في سماء تضجُّ بالهدوء وبالصخب في آن.

أطلق من نفسه كلَّ الأسئلة الحائرة ، وضعها في وعاء الذاكرة ، محاولاً دفنَ نفسِهِ في مساحة ضيقة يحصرها جدارانِ مُتقاربانِ، لم يتركا بينه وبين الأرض مسافةً يمكن أن تسبحَ فيها نوارسُ روحِهِ التائهة ، فبدت الدنيا عليه أضيق من ثقب إبرة ، وكذا اللّغة اختُصرت في سؤال واحد ، لا بل في كلمة واحدة امتلكها رجل ليس من طبعه تذوق الكلمات ، من أجل ذلك ، لم يفكر ملياً في مساحة أوسع تسبح فيه الأحلام وتتداح فيه الرؤى ، فالحُلُمُ لم يستجمع في تلك الليلة اللعينة بين أطوائه إلا خيال ثلة رجال أشداء ، غاصت البنادق في خواصرهم الممتلئة ، وغابت أجزاء من جُعَبِ المخازن في صدورهم المنتفخة ، وقد تدلت من

فوق أحزمتهم بطونٌ ممتلئة ، لا يَصْدُرُ عنها إذا ما ضاقت إلا فحيح الأفاعي ، وفي ذلك أبلغ الدلالات على تحطيم غلائل الأحلام الرقيقة ، وسجوف الأضواء اللامعة ، وكيف لذاك الحُلُم أن ينقضي وقد جُبِلَ بالأرق وعُجِنَ بالخوف ، وهو لا يستطيع إلا أن يترك كوابيسه تجتاح ذاته القلقة من دون أدنى محاولة للهروب إلى الأمام ، بعدما شُغِلتْ مساحاتُ الحسِّ بالأشباح التي تريد اقتلاع ذاته من ذاته ، وتريد أن تفرغه من محتواه ليكون صندوقاً فارغاً ، أو تَحْظُر عليه السباحة في عوالم الوهم، وكان لا يزال إذ ذاك يهوى الشموخ ، ويُحِبُّ أن يملأ رأسه بالأفكار ، بوصفه صاحبَ قلمٍ وذا كلمة محترمة مسؤولة تُلزمه بممارسة جُنْحة الكتابة.

هذه سيرتُهُ المعذبةُ ، ملخصها أنّه محسودٌ مما يشكو منه ، وما يشكو منه في قرارة الأمر خطير ولذيذ في آن ، خطورته في كون بضاعته كلمات ، واللّذة في ذلك أنّه أحسنَ خنقها، ولاسيما حين كان يضعها عَنْوَة بين السطور ، بيد أنّه في الآونة الأخيرة قرر أن يتركها في سباتها ، ويمضي مع أوراقه الخالية، وأوهامه الكاذبة إلى أن يطلع النهار ، والذي باغته مع تباشير الفجر أن عدداً من شذاذ الآفاق حطموا هدوء الحي الذي يسكن فيه ، وهو يرقب خطواتهم من خلف

النافذة ، إذ سرعان ما توجهوا إلى منزله وكأنهم يعرفونه من قبل ، صَعِدوا جميعاً مع أسلحتهم في المصعد الضيق ، وكانت البنادق إذ ذاك موجهة إلى الأعلى ، ولما وصلوا إلى الطابق الذي يسكن فيه ، اتجهت البنادق تلقائياً نحو باب شقته ، وهو كان بالانتظار يرقب مجيئهم من كوة في الباب ، ولم يمهلهم ليدقوا بابه بل جعله مشرعاً أمامهم ، ومن دون أية كلمة وكزه كبيرُهم قائلاً : أُمرنا بدهم بيتك ، سر بنا إلى الشرفة التي ترقب من خلالها ضوء القمر ، أو إلى تلك التي تحبس فيها الكلمات . ومن دون أدنى تردد قادهم إلى الشرفة التي تكدست فيها الأوراق وتراكمت فيها الأوهام، فقال قائل منهم : أخبرنا بالتفصيل الممل ماذا كتبت فيها ، ومنذ متى وأنت تستبيح الكلام، وتستأثر لوحدك بسحر الكتابة ، وحرارة المناجاة ، مع من تتعامل ولمن تكتب ، وإلى متى ستبقى صامتاً وأنت في لجة تيه ، أجب وإلا ...

قال على الفور: تلك الأوراق خالية ، وكنت قد حاولت هذه الليلة استدعاء بعض الكلمات ، لأفض فيها عذرية الصفحات الناصعة، لكنها كانت نائمة كالعادة ، أو أن رغبتها في مغامرة غزلية مع الأوراق قد انتفت ، وقد أعياني استدراجها كالعادة على الأوراق ، انظروا إنها فارغة وليس فيها خط واحد ، وأنا بناء على

ما سألتم أكتب للطيور وللقمر وللفراشات الصغيرة ، فقد كان بوسعي أول الليل أن أصنع للطيور كلمات تغنيها ، وللفراشات أجنحة من نور تحلق فيها ، للقمر وشاحاً يتزين فيه ، أكتب لمن لا يجيد لعبة القراءة ، وأكتب لمن لا يعي سحر الحروف ، ولا يعرف تأوّل الكلمات ، أعلمهم بإصرار أنّ الكلمة لا تصنع حياة من دون لسان ، وكل ما ذكرت يا سيدي ، ليس له كلمات، وليس له لسان ، لكني اليوم بالتحديد لم أبُحْ للفراشات وللأقمار وللعصافير بأي سِرّ ، وصدقوني إنّ قضيتي الوحيدة أنني لا أزال معتصماً بحبال الصمت .

ردَّ عليه رجل حليق الرأس مطلق اللحية طويل الشاربين: لا نصدّقك ولا نكذّبك ، وما ذكرتَهُ لم يَلْقَ في أسماعنا أيّ صدىً ، لأننا لم نعتدْ على سماع الكلمات ، نحن لا نعرف سوى تنفيذ الأوامر ، وما يخصُّك أنت بالذات شيء يسير ، فقط مجرد سؤال ثم تمضي في سبيلك .

(2)

في غرفة مظلمة، أُلقي كما يُلقى ثوبٌ بالٍ ، ارتطم بجدار سميك خشن حزَّ ذراعه كما يَحزُّ القلم بريشته الصفحاتِ الناعمةَ ، ثم سقط على صدره ، وقد

اختلطت أنفاسه برائحة عفنة ملأت منخريه ورئتيه لتغلق نهائياً مجرى التنفس ، يدفعها بزفير متقطع يرافق نشيجاً يصدر من أعماق جوانح تحتضن قلباً متعباً.

تُركَ في غيابةِ الظلمة مع أنفاسه الحرّى ، وهو يحاول تصيد حُلُمٍ تائهٍ في رحيل الكلمات ، ليأتيه صوتٌ غليظ دهمه مع حذاء ضخم وضع على مقربة من منخريه ، يأمره بالوقوف والاستعداد لمقابلة رئيس فراع الأمن العسكري. لملم قطعاً من نفسه كانت قد تناثرت في زوايا مقززة ، وبعامل الضوء وعى أنه لا يزال جسداً واحداً ونفساً متشظية ، طلب من صاحب الحذاء الضخم أن يساعده على النهوض ، بيد أنّ تلك الأمنية كانت صعبة التحقيق ، لأنّ ذا الحذاء تجرّد من معناه ، وخلع عن نفسه لبوس البشر بعد أن انتعل ذلك الحذاء الكبير ، فقال له بصوت أجشّ يخرج من فمٍ تخمرت فيه سحائب التبغ : قم وإلا ...

عاد ثانية يستجير أطرافه والجدار ، لينتصب كشجيرة غضة ، أخذه صاحب الحذاء الضخم بقبضة وحشية ، ثم وقف خلفه ساحباً ذراعيه بعنف ، مكبلاً إياه بزردة حديدية ، وبحركة سريعة تناول عِصَابة كانت بحوزته ، ليعصب عينيه ملغياً بذلك آخر خطوط الضوء التي كانت تتسلل إليه من زاوية في الباب .

دفعه أمامه دفعات متتالية ، وكان كشف ظهره للكم والوكز ، وقد قرر أن لا يئن مهما اشتدت الضربات ، وأن لا يردَّ مهما جرحت الكلمات ، أراد أن يشقَ بالصمت ، ويحاربَ بالسكوت ، وبعد هنيهة وصل إلى المكان الذي يعجّ بأصوات المخطوفين ، وقد استأنس بصرخات آدمية ، وامتلأت أذنيه بأنين المعذبين وبأدعية المظلومين الذين تمزقت أحشاؤهم وهم يصرخون إننا أبرياء ، يخنق عبراتهم لكمٌ وضرب وحشي على الرؤوس والصدور والأقفاء ، وأوجعها على أفئدتهم كلمات قاسية تستجيب لتوسلاتهم المحزنة بالشتم وتمزيق الأعراض ، فأدرك حينئذ أنّ الكلام متآمر خسيس يستجيب بسرعة للألسنة البذيئة الظالمة ، ويستعصي على ذوي الأفواه المكممة ، والقلوب الجريحة ، والصدور العارية ، لقد خلت الكلمات في ذلك الموقف من الرأفة ، وانتصرت لأصحاب الأحذية الضخمة ، وأصحاب اللحى المتدلية بغير تشذيب ، وصار العالم في هذه البقعة حكراً على فئة قليلة تتحلى بفضيلة التكلم .

أسندوه إلى الجدار ريثما يحين دوره في لقاء رئيس الفرع، وقد طال عليه الانتظار، فبدا قلبه إلى التوقف أسرع منه إلى موعد المقابلة ، ارتخت ساقاه ، فترك جسده يتدلّى على الأرض كمن أراد أن تعلو قدماه رأسَهُ وَفْقَ تشكيل غير

اعتيادي ، معبِّراً عن رغبة في السقوط ، وتوديع دنياه وهو مسترسل ومُذعن لكلّ ما يمكن أن يُتهم به ، وهو يعرف متيقناً أنّه سيموت من دون تهمة وبلا ذنب ، ولكنّه يريد أن يستمتع بالموت مسترخياً وحوله عالم صاخب من الأصوات الضعيفة والصراخ العنيف .

جاءه صاحب العضلات المفتولة مفسداً عليه لحظات النهاية تلك ، فانتشله بقبضة فولاذية ، وصوته العنيف يعصف في أذنه قائلاً : أنت تحسن التمثيل ، تريد أن تتظاهر بالمرض والضعف ، ولكنّي سأعلمك كيف يكون الضعف الحقيقي والموت الزؤام.

(3)

وُضعتْ على كتفه يدٌ ناعمة ربتت عليه بحنو غير معهود ، وبلطف جمٍّ جذبته إلى جهة لا يعرفها ، ثم جاءه صوتٌ رقيق : انتبه أمامك العتبة ، نخاف عليك أن تتعثر ، ذهل من رأفة لم تكن بالحسبان ، فقال بضع كلمات : هل حياتي لها قيمة في هذا المكان ، ردَّ عليه صاحب اليد الناعمة والصوت الرقيق : طبعاً ألست كاتباً مثقفاً ، إذن أنت مهم ، فمن هو مثلك يستحق التكريم والتبجيل ، وهل هنالك من يضاهي أصحاب القلم ، لا عليك حياتك عندنا ثمينة ، وكلماتك التي

تخطُّها في الكتب والمجلات كنوز عندنا ، وقد لا تتصور أننا حين لا نقرأ لك قصة أو مقالة لا نعدُّ ذلك اليوم في أيامنا ، وعلى كلّ حال فأنت هنا في ضيافتنا ، إننا أخوتك وذويك ، وعليك أن تتيقن أنّ وجودك هنا لسبب ، وهو سبب جوهري كما أظنّ ، واطمئنْ سوف تحتسي الكركديه الساخنة في الداخل وتتكلم كما تشاء ، وسيكون الجميع ممن يستمع لأحاديثك ، والآن اسمح لي أن أخذك إلى رئيس الفرع الذي اشتاق لسماع كلماتك ، وهذه فرصته في الحقيقة لكي يراك شخصياً بعد أن أُعجب بك من خلال ما تكتب ، وها قد آذنت له الظروف برؤيتك شخصياً ، ولسوف يفرح كما أظنّ بأنّ زمانه جاء مع زمانك ، إذ سيتفاخر بلقائك أمام أفراد أسرته وزملائه.

استولى عليه العجب ، وتضاعفت دهشته مما سمع ، وقد عاد النبض إلى قلبه متوازناً ، وقال في نفسه: ها قد عرفت الآن طرفاً من حقيقة المكان الذي أنا فيه ، فما كنت سمعته منذ قليل كان مجرد مؤثرات صوتية تستهدف امتحان أعصاب المعتقلين ، لمعرفة معادن الرجال ، إنّه اختبار وكنت أتمنى أن أتحلى بالصمود قليلاً أمام تلك الصيحات المستجيرة والأصوات المعذبة ، وأنا بلا شك سأكون في حرج شديد وأنا واقف أمام رئيس الفرع الذي سيعاتبني على انهياري وعدم

صمودي ، ولكنّي قد التمس لنفسي عذراً، وهو أنني لا أصمد بوجه الكلمات عادة ، فهزائمي معها يشهدها الورق على الدوام ، ومع ذلك فإنّ الكلمات التي سمعتها اليوم قد لا تكون حقيقية ، وهذا بالتأكيد طبيعي فعيناي كانتا معصوبتين ، وقد صدق من قال : لا تصدق كلّ ما تسمع ولا نصف ما ترى.

(4)

وقف أمام رئيس الفرع، مستعداً للإجابة عن أيّ سؤال ، وكان هنالك شعور يجول في خاطره ، لماذا أبقى إلى هذه الساعة مقيد اليدين ومعصوب العينين ، أليس ذلك يوهم بأنّ كلمات صاحب اليد الناعمة والصوت الرقيق لها مغزى آخر غير الذي تناهى إلى مخيلتي ؟

قال رئيس الفرع بصوت مسموع : ليس هنالك ما يدعو إلى تعريف نفسك ، فأنت معروف لدينا ، ولاختصار الوقت ، أريد أن أقول لك إنّك هنا لمجرد سؤال عابر ، وبوسعك أن تنصرف حالماً تجيب عنه ، والآن : أنت لا تتكلم ولا تحتج ولا تناهض ولا تجيب عن أيّ قضيةٍ تُسألُ عنها من قبل جيرانك وأصحابك وأقاربك ، ولم تُبْدِ رأيك فيما يدور حولك ، ولم تتورط في حياتك في كلمة أو تصريح ، ولم تذكر شيئاً يحمل لك شبهة الاعتراض أو التذمر ، ولم

ترتكب أيّ فعل يدعو للتساؤل ، ولم تزج في حياتك شخصاً ولم ترتكب جرماً ، وليس لك مساحة تشغلها في الحياة سوى بضع صفحات على الورق تهيم فيها ، ومضمار من الخيال تطير فيه . وهذا كلّه عندنا قريب من الشبهة التي تستلزم التوضيح ، فهات ما عندك.

استجمع قواه كلّها ووضعها تحت لسانه ، ثم حرّك الكلمات التي كانت تقبع في تجاويف فمه ، محاولاً اختيار أبلغها للردّ الشافي عن سؤال الزعيم ، وقد لا حظ أنّ السؤال فيه أكثر من طلب ، لذا فمن الطبيعي أن يكون لديه متسع من الوقت ليتكلم على سبب صمته ، لأنّ شبهته فيما بدا له أنّه بقي صامتاً ، وقد أيقن أنّ المقولة التي يعرف سحرها جيداً " الصمت من ذهب" لن تنجيه اليوم ، وهو لا يزال مرتهناً في قبضة حديدية ، وقد حارت به السبل من أين يبدأ ، وما الكلام الذي ينقذه من هذه الورطة ، وما النتيجة التي سوف يستخلصها الزعيم بعد سماعه .

تدافعت كلمات في البدء على لسانه ، ولكنها لم تكن بالفصاحة المرجوة ، مط بعض الحروف التي تكشف أسئلة أكثر من تعبيرها عن قرارة ما يفكر به ، فضرب رئيس الفرع يده على الطاولة قائلاً : لا تتلاعب بالكلمات ، صبري نفد ،

وليس لديّ وقت للاستماع إلى فنون البلاغة وألوان الفصاحة ، قل باختصار لننهي المسألة ، وأحذرك من التزيد والثرثرة .

كانت هذه هي المرة الأولى التي يأمره أحد بحبس كلماته في سجن فمه ، ابتلع مقداراً كبيراً منها كان يتمنى أن يلقيها على أسماع ذلك الرجل الحديدي ، ولكن الوقت غير مناسب ، وليس لديه سعة ليقول كلّ ما يريد ، وتذكر على الفور كلام صاحب اليد الناعمة والكلمات الرقيقة ، أنّه سيُعطى الوقت الكافي للحديث ، ولكنّه فيما يبدو أساء فهم مقالاته ، فلعلّ ذاك الرجل أراد أن يقول له : قُلْ ولكن بإيجاز ، وهذا كلام سليم فمن يحتمل اليوم كلاماً مُسْهَباً ؟

نعم يا سيدي إنني كنت أفضل الصمت ، قاطعه رئيس الفرع، ومن سألك عن رأيك في هذه المسألة ، أسألك لماذا تصمت؟

فتح فمه ليجيب وقبل أن تنزلق من لسانه كلمة واحدة ، نهره قائلاً:

ـ هذا يكفي لقد اعترفتَ ، ثم استدار إلى الكاتب قائلاً : اكتب لقد اعترف بكل شيء ، بعد أن أُعطي الوقت الكافي للإجابة بحرية عن السؤال الموجه إليه.

حمص: 18/9/ 2012

❖❖❖❖❖❖❖❖❖